الفقيه العارف
آية الله السيد عبد الكريم الرّضوي الكشميري *

إعداد: طالب صلاح

*** مِصداقُ وصف أمير المؤمنين عليه السلام لشِيعته: «شيعتي والله الحكماء، العلماءُ بالله ودِينه، العاملون بطاعته وأمره، المُهتدون بحبّه، أنضاءُ عبادة، أحلاسُ زهادة..».**
*** كانت عبادته الدائمة المُضنية مضرب المثل لدى بعض كبار العارفين!.. قال له السيد الخوئي: «إنّ "كفاية الأصول" معجونة في دمك» ومنحه إجازة اجتهادٍ خطيّة.**

هو آية الله السيد عبد الكريم بن السيد محمد علي بن آية الله السيد حسن الرّضوي الكشميري من مراجع التقليد في كربلاء. أمّا جدّه لأُمّه فهو آية الله السيد محمد كاظم اليزدي صاحب الرسالة العمليّة الذائعة الصيت «العروة الوثقى»، والتي باتت محوراً لعشرات من التعاليق والحواشي الاستدلاليّة. ويُنقل عن آية الله بهجت قدّس سرّه ما يدلّ على عظيم منزلته وكرامته عند الله تعالى.

وُلد السيد عبد الكريم الرّضوي الكشميري في النجف الأشرف سنة ١٣٤٤هـ، وتتّصل شجرة نسبه الشريف ـ كما أمضاها آية الله المرعشي النجفي ـ بالسيّد موسى المبرقع (المدفون في قم) بن الإمام الجواد عليه السلام، ويتصل نسبه بالإمام الرضا عليه السلام بست وعشرين واسطة، وفق تحقيق السيد المرعشي.

الأُسرة

يقول السيد عبد الكريم إنّ أصل أُسرته من قم المقدّسة، لكنّ جدّه الرابع عشر السيد حسين الرضوي القمّي هاجر إلى الهند، وكان صاحب كرامات، وله في كشمير مزارٌ معروف في منطقة «سفيلم بوره».

هاجر آية الله السيد محمد حسن الرضوي الكشميري [جدّ المترجم له]، مع والده السيد عبد الله الرضوي، من موطنه الأصلي كشمير إلى كربلاء وهو في السابعة من عمره، واشتغل بطلب العلوم الدينيّة إلى أن بلغ درجة الاجتهاد فأقبل أهالي كربلاء والهند على تقليده في أواخر حياته، وكان معدوداً من الأتقياء والعلماء، وتخرّج على يديه ثلّة من العلماء كالشيخ عبد الكريم الحائري مؤسّس الحوزة العلميّة في قم.

الفقيه العارف آية الله الكشميري

ينقل السيد عبد الكريم الكشميري عن العارف السيد علي القاضي أنّه كان يمتدح جدّه السيد حسن كثيراً، وينقل عن جدّه لأمّة السيد اليزدي أنّه كان إذا اشتدّ به المرض يقول: «آتوني بثياب السيد حسن الكشميري لأرتديها وأشفى من مرضي».

ويُنقل عن المقدّس الشيخ بهجت أنّه شاهد السيد حسن الكشميري والميرزا محمد تقي الشيرازي "..." وكان يُثني على زهدهما وتواضعهما.

وكان والده السيد محمد علي من خيرة الصُلحاء

والعُبّاد، وكان الناس يقصدونه لأجل الإستشفاء بتربة حسينيّة عنده أُخذت من القبر الشريف قبل ثلاثماية عام من ذلك التاريخ، كما كان رحمه الله مواظباً على جملة أدعية، منها دعاء يستشير، ودعاء الإحتجاب للأمير عليه السلام، ويوصي ولده السيد عبد الكريم بالمواظبة عليهما، ودعاءَ كميل. كذلك كان صديقاً حميماً للشيخ عبد الكريم الحائري، فلمّا وُلد آخر أبنائه سمّاه عبد الكريم.

الجَذْبَة والدّراسة والتدريس

يقول السيد عبد الكريم رضوان الله عليه: «كنت طفلاً في السابعة أو الثامنة من عمري ألعب مع أطفال آخرين في زقاق قريب من مدرسة جدّي السيد محمد كاظم اليزدي، إذ مرّ شيخ طاعن في السنّ، وأشار إليّ أنْ: أُدنُ منّي، فذهبتُ إليه، فقال لي: إن في رأسك نوراً، فلا تلعب مع الأطفال، فأنت لا تصلُح للّعب».

ولم يكن هذا الشيخ غير آية الله العارف مرتضى الطالقاني، والذي شاءت العناية الإلهية أن يكون السيد الكشميري تحت رعايته وإشرافه.

وبتشجيع من والده، دخل السيد عبد الكريم سلك الحوزة العلميّة، وارتدى زيّ طَلَبة العلوم الدينيّة قبل أن ينبت عارضاه، ولازم العارفَ الطالقاني حتى وفاة الأخير بعد عشر سنوات، أقام خلالها في إحدى غُرف مدرسة جدّه اليزدي إلى جانب غرفة العارف الطالقاني الذي أرسى خلال السنوات العشر هذه أُسُس العلم والعرفان بشكل مُحكَم في شخصيّة تلميذه.

يقول السيد عبد الكريم عن علاقته بالعُرَفاء والعُبّاد: «لقد كان الجميع في سنّ الفتوّة والشباب يرافقون من هم في أعمارهم، ولكنّي كنت أعاشر الشيوخ المتقدّمين في السنّ، وأطلب برنامجاً للسلوك من أي أستاذ أجده من أساتذة السلوك».

ولقد أُتيح له رضوان الله عليه أن ينهل من مَعين أعلام أساتذة الأخلاق، وفي مقدّمهم العارف السيد هاشم الحدّاد الذي منحه «إجازة الأذكـار» وهي إجازة بتعليم ذِكر أو أذكارٍ بعينها لمن يرى فيهم المجاز له أهليّة تعلّمها، وتضمن هذه الإجازة أيضاً اتصال سند الذكر المخصوص بمصادره الأصلية، أي رسول الله وآل بيته الأطهار صلوات الله عليهم أجمعين.

وتتّصل سلسلة أساتذة السيد الكشميري في الأخلاق بالشيخ محمد البيد آبادي «العارف بلا تعيين ومرجع أرباب اليقين»، وفق تعبير السيد أحمد الكربلائي أستاذ السيد علي القاضي.

وفي مجال العلوم الحوزويّة، درس المقدّمات عند والده والشيخ الطالقاني، ثمّ درس السطوح عند الشيخ مجتبى اللنكراني والسيد أحمد الأشكوري، والمكاسب عند الشيخ راضي التبريزي.

وتعرّف في مدرسة جدّه السيد اليزدي إلى آية الله بهجت ودرس عنده قسماً من بحوث «الاستصحاب والتعادل والتراجيح».

ودرس السيد الكشميري «كفاية الأصـول» عند الشيخ محمد حسين الطهراني صاحب «الذريعة»، وعند الشيخ عبد الحسين الرّشتي، وكلاهما من تلامذة مؤلّفها الآخوند الخراساني. وقد بلغت إحاطته وإلمامه بالنصوص الأصوليّة والفلسفيّة حدّ أنْ قال له السيد الخوئي: «إنّ كفاية الأصول معجونة في دمك»، ومنحه إجازة اجتهادٍ خطيّة.

كما درس الفلسفة عند الشيخ صدرا البادكوبي والحاج فيض الخراساني، ودرس قسماً من «أسفار» الملا صدرا عند الشيخ عبد الحسين الرشتي. ثمّ حضر دروس البحث الخارج في الفقه والأصول عند كثير من فقهاء ومراجع عصره كالشيخ علي محمد البروجردي، والسيد عبد الهادي السبزواري، والميرزا حسن البجنوردي، والسيد عبد الأعلى السبزواري، والشيخ محمد كاظم الشيرازي، والسيد أبي القاسم الخوئي رضوان الله عليهم.

يقول السيد عبد الكريم في تقييم أساتذته: «كان معقول السيد محمد حسن البجنوردي غالباً على فقهه، وكتابه «القواعد الفقهيّة» ليس دليلاً على غَلَبة فقهه على معقوله، بينما كان الشيخ علي محمد البروجردي يردّد كثيراً آراء وأقوال أستاذه المرحوم الكمباني في أصول الفقه، وأما السيد عبد الأعلى السبزواري فقد كان من أصحاب القلوب اليَقِظة، وقد حضرت ردحاً

من الزمن دروسه في البحث الخارج، وقرأت دروس البحث الخارج في «العروة الوثقى» عند السيد عبد الهادي السبزواري الذي كان عالماً جيداً ويواظب كثيراً على ذكر (قل هو الله أحد)».

وقد استطاع السيد عبد الكريم أن يحتلّ وجماعة من أقرانه منزلة علميّة رفيعة في الأوساط الحوزويّة، حتى أنّهم إذا حضروا درساً أصبح هو الدرس العام والأساسيّ في النجف الأشرف.

وبسببٍ من مكانته العلميّة والاجتماعيّة، تمكّن ـ في فترة لاحقة ـ من التصدّي لتدريس الفلسفة من «منظومة السبزواري» على الرّغم من المعوّقات التي كانت تعترض سبيل تدريسها، حتى بلغ عدد دروس الفلسفة وغيرها من المعارف الإسلاميّة التي كان يُلقيها أحد عشر درساً في اليوم. وقد بقي على هذا المنوال حتى لقائه بالعارف السيد هاشم الحدّاد، وحينها هجر التدريس ودخل مرحلة جديدة في السلوك على يديه.

مؤلّفاته

دوّن آية الله الكشميري خلال إقامته في النجف الأشرف تقريرات دروس أساتذته وبعض التعليقات على المناهج الدراسيّة، وقد نقل معه قسماً منها حين هجرته إلى قم عندما تعرّضت حياته للخطر على أيدي أزلام النظام البعثيّ البائد، ولكنْ صادرتها منه الشرطة العراقية على الحدود مع إيران، وهي المحاضرات الأخلاقيّة للشيخ العارف مرتضى الطالقاني، وتقريرات أبحاث آية الله الخوئي، وشرح على «كفاية الأصول» حَظِيَ بتقريظ آية الله الخوئي وآية الله الميلاني، وكتيّب في الأذكار والأوراد، وديوان شعر باللّغة العربية.

«يـا جـدّاه»

لعلّ السِمة الأبرز في شخصيّة آية الله الكشميري هي تعلّقه الشديد بمولى الموحّدين وأمير المؤمنين عليه السلام، حتى بات الحديث عنه وعن النجف الأشرف وِرده الذي لا يفتر عنه. كان رحمه الله إذا اشتدّ عليه المَرض ـ بعد هجرته من النجف ـ وجيء بطبيب، يقول: «طبيبي هو مرقد أمير المؤمنين». وتقول زوجته إنّه كان يعشق زيارة «أمين الله»، وكلّما استبدّ به الشوق إلى النجف نادى بأعلى صوته: «يا جدّاه».

ويروي صهره السيد جواد أنّه كان يُفضّل الجلوس في باحة حرم أمير المؤمنين في فصل الصيف حيث درجة الحرارة تتجاوز الـ ٤٥ درجة مئويّة، ويقول: «هنا الحياة، إنّ روحي تتجدّد هنا».

ويُنقل عن المرحوم العارف الشيخ جعفر المجتهدي أنّه قال في السيد الكشميري: «إن قلب هذا السيد

السيد الكشميري مع اثنين من طُلابه

مملوءٌ بحبّ أمير المؤمنين عليه السلام إلى درجة أنه في كلّ مرة يأتي فيها إلى دارنا تأتي معه أيضاً قبة أمير المؤمنين عليه السلام».

ويقول السيد الكشميري نفسه: «كانت إذا عَرَضت لي مشكلة أذهب إلى حرم أمير المؤمنين عليه السلام وأقرأ سبع مرات (نادِ علياً...) فتُحلّ هذه المشكلة».

الصدّيقة الكبرى عليها السلام

تقول زوجة آية الله الكشميري: «كانت تظهر عليه معالم الحزن والمُصاب ".." خاصة أيام مُصاب الصدّيقة الزهراء عليها السلام، حيث ينطوي على نفسه ويُردّد أشعار النياحة في سرّه..».

وكان رضوان الله عليه يحرص على إحياء أيام مصابها بمجالس خالية من الرياء، فلم يكن يأبه لعدد الحاضرين، كما كان يؤكّد على صلاة الاستغاثة بالزهراء عليها السلام؛ وهي: عن الصادق عليه السلام: «إذا كانت لك حاجة إلى الله، وضِقت بها ذَرعاً، فصلِّ ركعتين، فإذا سلّمتَ كبِّر الله ثلاثاً، وسبِّح تسبيح فاطمة عليها السلام، ثمّ اسجد وقل مائة مرّة: (يا مولاتي فاطمة أغيثيني)، ثمّ ضع خدّك الأيمن على الأرض، وقل مثل ذلك، ثمّ

عد إلى السجود، وقل ذلك مائة مرّة وعشر مرات، واذكر حاجتك، فإنّ الله يقضيها».

سيّد الشهداء عليه السلام

أمضى آية الله الكشميري حياته في مدينَتَي النجف وقم، وكان يزور كربلاء المقدّسة في شهري محرّم وصفر وفي ليالي الجُمع من كلّ أسبوع. ولإحياء شعائر الحزن على أبي عبد الله الحسين في هذه المدن الثلاث خاصيّة عجيبة لا يعرفها إلا من وُفّق لمعاينتها عن قُرب، حتى يُخيّل إليه متى عاينها أنّه لم يندب أبا عبد الله من قبل، وأنّ ما يراه هو غاية الممكن في إحياء شعائره سلام الله عليه. لكنّ السيد الكشميري ـ مع ذلك كلّه ـ كان يعتبر أنّ ما يفعله الموالون هو دون الوفاء بحقّ الإمام الحسين عليه السلام.

وقد بلغ حبّه لسيد الشهداء عليه السلام أنّه كان يخرج من داره يوم العاشر من محرّم حاسر الرأس حافي القدمين وقد لطخ وجهه وجبهته بالتربة الكربلائية، ويبقى على هذه الحال حتى ما بعد الظهر. وكان يجلس عند مدخل حرم السيدة المعصومة حيث مسير المواكب الحسينيّة، ويبقى حتى الليل باكياً متفكّراً يرمق القبّة الشريفة.

تقول زوجته عن أيّام إقامتهما في النجف الأشرف: «كان إذا أشرقت شمس يوم الخميس انصرف فكره عنّا صوب كربلاء. وعندما يغادر النجف إلى كربلاء، كان يقول لمن معه: هنا حرم أمير المؤمنين عليه السلام وهناك حرم سيد الشهداء عليه السلام، وينبغي أن يُحترم هذا المسير بين الحرمين فلا نتحدّث خلاله بحديث دنيوي».

فإذا وصل إلى كربلاء، قصد حرم الإمام الحسين عليه السلام أوّلاً. يقول رضوان الله عليه في ذلك: «في إحدى المرات أردت زيارة السيد هاشم الحداد قبل الذهاب إلى حرم سيد الشهداء عليه السلام، وأنا في الطريق سمعت طفلاً يقول لوالده: يا أبي، أنظر إلى هذا الرجل كيف يترك زيارة سيّده أولاً ويقصد زيارة عبدٍ من عبيده! فأصابتني الدّهشة لما أجراه الله تعالى من كلام على لسان هذا الطفل».

صاحب الأمر عجّل الله تعالى فرجه الشريف

لطالما شدّد آية الله الكشميري على ضرورة أن يُعزّز المؤمن علاقته بالإمام المهديّ عليه السلام، وكان يرى ضرورة أن يفرّغ السالك ساعةً من وقته يوميّاً لصاحب الزمان عليه السلام، يقرأ فيها زيارة «سلام على آل ياسين»، ويكرّر بعدها أذكاراً خاصّة. وكان يحثّ معارفه وتلاميذه على زيارة الأماكن المنسوبة إلى الإمام الحجّة عجل الله تعالى فرجه الشريف، وفي طليعتها مسجد «السهلة» الذي كان يُحيي فيه ليالي الأربعاء بالعبادة حتى الصباح.

العبادة والذكر

لقد أذاق آية الله الكشميري بدنه مشقّة السهر والتهجّد والعبادة لساعات طويلة يوميّاً على مدى سنوات حتى أقعده المرض. ومع ذلك لم تصدر منه أيّة شكوى على الرغم من آلام الظهر المبرّحة وإصابته بجلطتين في القلب، وكان إذا سُئل عن صحّته يكتفي بقول: «الحمد لله».

وأما صلاته فهي صلاة العارفين التي تتجلّى فيها أسمى مصاديق «الصلاة معراج المؤمن»، وكان يُشدّد على ضرورة أدائها أوّل الوقت، بل أن يجلس المصلّي في مُصلاّه قبل دخول وقتها، ويتفكّر في أنّه بعد قليل سيقف بين يدي إلهٍ أبديّ غفور عزيز رحيم.. ويحاول أن يصرف ذهنه عمّا يُشغله من أمور الدنيا لتكون صلاته بحضور قلب.

ويُنقل عن زوجته أنّه «كان يستغرق في الصلاة كأنه يرى الله» وأنّ صلاته كانت أشبه شيء بالمناجاة، حيث تستغرق قراءة الفاتحة أو القنوت أو السجود مدّة نصف ساعة أحياناً.

وعن عبادته وتهجّده في جوف الليالي، يقول الحاج صاحب عضد الله الذي رافقه ٢٥ سنة كاملة: «كنت أذهب معه في بعض الأحيان إلى مسجد الكوفة، فكان يبقى فيه مستيقظاً إلى الصباح يصلّي ويتعبّد».

ويقول نجله السيد محمود: «كان يصعد في الليل إلى سطح الدار ويتعبّد هناك لكي لا نراه».

وكان رضوان الله عليه يقول: «إن الاستيقاظ في السَّحَر أفضل من الإستيقاظ بين الطلوعَين لمن لا يقوى على الإستيقاظ فيهما معاً».

وأما تلاوته للقرآن فهي أُنسه بالله تعالى، وكان مواظباً على تلاوته في البيت وفي الطريق أيضاً، حتّى أنّ عائلته كانت تعرف بقدومه إلى البيت من سُماع

تلاوته، وكان يشدّد على تعلّم أحكام التجويد والتلاوة الخالية من الأخطاء.

ويحكي أبناؤه وتلامذته عن أحواله في الذكر واستحضار الله تعالى ما يُستنتج منه أنّه رضوان الله عليه كان التحق بالملكوت الأعلى قبل وفاته. يقول أحد أبنائه: «لم يكن والدي في هذا العالم، ".." وكانت عباداته قلبيّة».

ويضيف: «لا ندري ماذا كان يقول، وكل ما نعلمه أنه كان في حال الذكر خلال أربع وعشرين ساعة، حتى عندما يمشي في الطريق. كانت المسافة بين دارنا وحرم أمير المؤمنين عليه السلام أكثر من ثلاث كيلومترات، وكان يقطع هذه المسافة كل يوم أربع مرات ـ ذهاباً وإياباً ـ مشياً على الأقدام، وكان لسانه يلهج بذكر الله في كلّ خطوة يخطوها».

ويؤكّد تلامذته على حقيقة أنّه كان أكثر وقته منصرفاً عنهم، كأنه معهم وليس معهم في آنٍ واحد، فكانوا يرونه مجذوباً إلى الأعلى، ومهما جهدوا لجذب انتباهه أخفقوا، إلا إذا شاء هو أن يجاملهم ويلتفت إلى حديثهم.

الوفاة

كان آية الله الكشميري في سنوات عمره الأخيرة يذكر الموت كثيراً، ويردّد أحياناً ما رُوي أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كتبه على كفن سلمان المحمديّ:

وفدتُ على الكريم بغير زادٍ من الحسنات والقلب السليمِ

فحملُ الزاد أقبحُ كلّ شيءٍ إذا كان الوفود على الكريمِ.

وكان يقول: «الموت أمامي ولا مزاح فيه»، وإذا سُئل كيف حالكم يقول: «في حال النزع». وقال لأحد تلاميذه مرّة: «رأيت السيد هاشم الحداد في عالم الرؤيا وهو يقول لي: لماذا أنت مغموم؟ إنّ الفرج قريب!».

تُوفّي رضوان الله عليه في العشرين من ذي الحجّة سنة ١٤١٩ هـ عن عمرٍ ناهز الرابعة والسبعين، وشُيّعت جنازته في قمّ، وصلّى عليه آية الله الشيخ بهجت قدّس سرّهما، ودُفن في حرم السيدة المعصومة عليها السلام إلى جوار مرقد العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي صاحب «تفسير الميزان».

* مُقتبس من كتاب «لسان الصدق»، (بتصرّف).

كسرُ صنَمِ التَكبُّر

نُقل عن السيد الكشميري أنّ «عالماً» أَلَحّ عليه أن يصطحبه إلى طبيب «العلماء» الروحي في عصره، الحدّاد الكربلائيّ، المعروف بالسيد الحدّاد.

يقول السيد الكشميري: «استحييتُ من ردِّه، ولكني كنتُ خائفاً أن يطردنا السيد الأستاذ».

لم يكن هذا «العالم» في وارد التزكية و عالَم المعنى، بل كان متبحِّراً في ظواهر العِلم والألفاظ، دون خرْق الحجاب لِتَتَسمّر عينا القلب على المعنى، وهذه الظواهر هي ما يعبّر عنه الشيخ البهائي وغيره بـ «القيل والقال»، الذي لا بدّ منه شرط أن يكون القلب مشدوداً إلى المعنى.

أضاف السيد الكشميري: «ذهبت مع هذا "العالم" إلى دكان السيد الحداد.. سلّمنا.. ردّ السلام مع نظرة لا تَنمُّ عن الرِّضا.

قال صاحبي للسيد الحداد: (سيّدنا أريد أن أتعلّم منكم).

ومباشرةً دخل شخص ظاهرُه أنه من "عامة الناس" كما يقولون. سلّم وجلس. نظر السيد الحداد إلى "صاحبي، العالم" وقال له باللهجة العراقية: (كُوم سَوِّيلَه غَرْشَه!) أي: (قم وأعدّ النارجيلة لهذا الشخص!).

لم يقم صاحبي، ولم يجرؤ أن ينبس ببنت شفه. لكن ظهرت عليه ملامح تقول: (مَن؟؟! أنا أُعدّ "غرشة" لمثل هذا!!).

لم يُمهله السيد الحدّاد أن يُكمل حديث الملامح، فعاجلَه بصاعقة أشدّ قائلاً له: (كوم إطلع برّا، بهالنفسية وتريد تتعلّم؟!).

**

كان التكبّر هو الصنم الذي رأى السيد الحدّاد أنه لا بدّ من كسرِه لرفع إصرِه والأغلال. فهل يُتاح لي ولك مَن يكسر هذا الصنم؟ أللّهمّ ارزقنا.